**المحاضرة الثامنة**

**ابن رشيق القيرواني**

**ابن رشيق المسيلي** القيرواني من مواليد (المحمدية) سنة تسعين وثلاثمائة، ومن شعراء وأدباء القيروان ونقّادها. من مؤلفاته: ديوان شعر وكتب نقدية أشهرها: (قراضة الذهب في نقد أشعار العرب)، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، و(أنموذج الزمان في شعراء القيروان). اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاته، فقيل أن ذلك كان سنة (463ه)، وقيل سنة (456ه) وهو الأرجح. من أشهر ما ألف كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده).

**ابن رشيق الناقد:**

عرف ابن رشيق بكتابه (العمدة)، وهو أشهر ما صنّف في النقد العربي القديم. يقول محمد مرتاض منوها بقيمته: ''يجدر الذكر أنّ ابن رشيق المسيلي (456هـ) قد فرض نفسه على كل ناقد، وأثبت قيمته عند كل أديب، فهو ليس شاعراً فحسب، وليس ناقداً فقط، ولكنّه كل ذلك، وحسبه شرفاً أنّه أول ناقد من المغرب العربيّ خصّص كتاباً كاملاً لهذا الفن، وهو أكبر ناقد عرفه المغرب العربيّ القديم، بل والعالم العربيّ حتى حقبة متأخّرة. فقد ظل كتاب العمدة –ولا يزال- يدرس في الجامعات العربيّة، وتُستقى منه النظريّات التي قدّمت خدمة جلّى للأدب العربيّ في هذا الإقليم وفي العالم العربيّ قاطبة''.

حرص ابن رشيق في كتاب (العمدة) ـ وهو يقدّم مفهوماً من المفاهيم النقديّة ـ على عرض الروايات المختلفة والمعاني المتعددة للمصطلح، مع الاحتفاظ برأيه صريحا إن تطلب الأمر، وهذا ما يجعل منهجه مميّزاً. ومن ذلك قوله وهو يستعرض رأي الآمدي في البحتريّ: ''أخذ ابن بشر الآمدي على البحتري قوله:

هَجَرَتْنا يَقْظَى وكَادَتْ عَلى مَذْهَبِهَا \*\*\* في الصُّدودِ تَهْجُرُ وَسْنَى

قال: هذا غلط، لأنّ خيالها يتمثّل له في كل أحوالها، يقظى كانت أووسنى أو ميّتة، والجيّد، قوله:

أُرَدُّ دُونَكِ يَقْظَاناً ويَأْذَنُ لِي\*\*\* عليكِ سُكْرُ الكَرَى إنْ جِئْتُ

"وأنا أقول: إنّ مراده أنها لشدّة هجرها له، وحنوّها عليه لا تراه في المنام إلاَّ مهجوراً، ولا تراه جملة، فالمعنى حينئذٍ صحيح لا فساد فيه، ولا غلط، ولعلّ الرواية "وكادت" وهذا موجود في كلام الناس اليوم، ومثله يقولون: "فلان لا يرى لي مناماً صالحاً"، وليس بين بيتي البحتريّ تناسب من جهة المعنى جملة واحدة، لأنه أوّلاً يحكي عنها، وثانياً يحكي عن نفسه، بل إن في اللّفظ اشتراكاً ظاهراً".

من أبرز قضايا (العمدة) حد الشعر. ويعرفه ابن رشيق فيقول: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حدّ الشعر، لأن من الكلام موزوناً مقفّى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنيّة، "كأشياء أنزلت من القرآن، ومن كلام النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنّه شعر".

والسّبب في إطلاق لقب شاعر عليه يوضحها قوله: "وإنّما سمى الشاعر شاعراً، لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره؛ فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ أو ابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص ممّا أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان إطلاق اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلاّ فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير".

فالشاعر سمى كذلك لأنّه متدفّق الشعور، مرهف الإحساس.

وتتنوع أغراضه ومعانيه وأركانه، وفي هذا الشأن استشهد بما قاله سابقوه. فأركان الشعر هي: ''المدح، والهجاء، والنسيب، والرثاء''، وقواعده هي: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب. فمع الرغبة يكون: المدح والشّكر، ومع الرهبة يكون: الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون: الشوق ورقّة النسيب، ومع الغضب يكون: الهجاء والتوعّد والعتاب الموجع.

ومن آراء ابن رشيق أيضاً تشبيهه ببيت البناء ببيت الشعر، حيث قال: "والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدّربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون. وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخيّ والأوتاد للأخبية، فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنّما هو زينة، ولو لم تكن لاستغنى عنها".

وقد اعتبر الوزن شرطا أساسيا لصنعة الشعر فقال: "الوزن أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها بها خصوصيّة، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة، إلاّ أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن، وقد لا يكون عيباً نحو المخمّسات وما شاكلها".

وللشعر اسباب تساعد على نظمه. وقد روى ابن رشيق طائفة من العوامل في شكل حكايات تتعلق بالطريقة التي يلجأ إليها الشعراء عادة حينما يستعصي عليهم قول الشعر، فقال: "وحدّثني بعض أصحابنا من أهل المهديّة- وقد مررنا بموضع بها يعرفه بالكدية هو أشرفها أرضاً وهواء- قال: جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الكريم على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا، فقلت أبا محمد قال: نعم: قلت: ما تصنع هاهنا؟ قال: ألقح خاطري، وأجلو ناظري: قلت: فهل نتج لك شيء؟ قال: ما تقرّبه عيني وعينك إن شاء الله تعالى…."..

وقال أن جرير كان يشعل سراجه ويعتزل، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطّى رأسه رغبة في الخلوة بنفسه.

ومن آراء ابن رشيق المهمة رأيه في قضية القديم والحديث، إذ يقول: "كلّ قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله". ثم يستشهد بما يؤازر رأيه، ويقويّ فرضيّته، فيقول:

"وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد أحسن هذا المولّد حتّى هممت أن آمر صبياننا بروايته: يعني بذلك شعر جرير والفرزدق''. ثم يزيد رأيه توضيحا باستشهاده بنقاد آخرين فيقول: "فأمّا ابن قتيبة فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ قوماً دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره". ثم يخلص إلى رأيه الخاصّ قائلا: "ليس أحق بالكلام من أحد، وإنما السّبق والشرف معاً في المعنى على شرائط… وقول عنترة: (هل غادر الشعراء من متردّم) يدلّ على أنّه يعدّ نفسه محدثاً، قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ولم يغادروا له شيئاً، وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدّم، ولا نازعه إياه متأخّر، وعلى هذا القياس يحمل قول أبي تّمام- وكان إماماً في هذه الصناعة غير مدافع-:

يقول من تقْرَعُ أسماعَه\*\*\* كم تَرَكَ الأوَّلُ للآخِرِ

فنقض قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئاً. وقال في مكان آخر فزاده بياناً وكشفاً للمراد:

فلو كان يفْنَى الشِّعْر أفناه ما قَرَتْ\*\*\* حِيَاضُكَ منه في العصور الذّواهِبِ

"وإنّما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين: ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن، والقدرة ظاهرة على ذاك وإن خشن".

فالأفضليّة لا تأتي إلا من اختراع المعنى، وسمّوه وشرفه.

**المصادر والمراجع:**

1- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

2- بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

3- الشيخ يوقربة: الشعر وقضاياه عند أبي علي الحسن بن رشيق المسيلي، د ط، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2005.

4- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، د ط، مكة للطباعة، 1419ه، 1998م.

5- محمد مرتاض: النقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوره، د ط، إتحاد الكتاب العرب، 2000.